خاص

منتديات بحور المعارف
WWW.ELMA3ARIF.BA7R.ORG

مكتبة منتديات بحور المعارف

هذا الكتاب
مقدم من طرف منتديات بحور المعارف

- كتب دينية
- علوم القرآن
- علوم السنة النبوية
- تاريخ إسلامي
- موسوعات
- روايات عالمية
- أدب عربي
- كتب الشعر
- سياسة

- تاريخ
- اقتصاد
- إدارة
- فلسفة
- علم نفس
- شخصيات ومشاهير
- معالم وأماكن
- كتب علمية
- كتب الطب

- كتب المرأة
- كتب الطبخ
- كتب انجليزية
- كتب فرنسية
- كتب تربوية
- كتب ثقافية
- كتب أطفال
- إعلام آلي
- بحوث ورسائل جاهزة

للمزيد من الكتب والموسوعات الحصرية زوروا منتديات بحور المعارف وأحصلوا عليها مجانا

السياسة الروسية في الشرق الأوسط

عبد الغني سلامة

كاتب وباحث فلسطيني – فلسطين

كانت نهاية العام 1991 هي نهاية الإمبراطورية السوفيتية، التي صارت أثراً بعد عين، بعد أن عمّرت ثلاثة أرباع القرن، صبغت خلالها ثلاثة أرباع الأرض بلونها الأحمر، ثم انهارت بسرعة غير متوقعة، وحينها ساد اعتقاد في الأوساط السياسية أن الحرب الباردة قد انتهت، وأن نظاماً دولياً جديداً "أحادي القطبية" قد بدأ بالتشكل لأول مرة في التاريخ، وأن روسيا التي ورثت الاتحاد السوفيتي لم تعد قطباً في هذا النظام، ولا حتى دولة مؤثرة فيه. فإلى أي مدى كان هذا الاعتقاد صحيحاً ؟!

إذا كان صحيحاً أن الاتحاد السوفيتي بحزبه وأيديولوجيته وسياسته وقياداته قد صار جزءًا من التاريخ، فإن هذا لا يعني بالضرورة أن روسيا ليست جزءًا من الحاضر، فثمّة حقائق موضوعية ومعطيات جيوسياسة لا تنال منها تغيرات الزمن وطبائعه المتقلبة، فعلى سبيل المثال ورثت روسيا عن سابقتها دولة تعتبر الأكبر في العالم بمساحة هائلة تقدر بـــ 17 مليون كلم^2، وقوة بشرية تعدادها نحو 150 مليون إنسان، وورثت أيضاً الجيش الأحمر، وهو من أقوى جيوش العالم، لديه أكبر مخزون من الأسلحة النووية، والذي يقدر بحوالي 16000 رأس نووي، ولديها ثاني أكبر مخزون عالمي من الصواريخ البالستية، وتحتل المركز الأول في تصدير الأسلحة لأكثر من 80 دولة، بما يشكل 30% من تجارة السلاح العالمية، وفي مجال الفضاء ما زالت تحتفظ بمكانتها الريادية، ولديها رواد مقيمون في محطة الفضاء الدولية، فضلاً عن أقمارها الاصطناعية التي تجوب فضاء الكرة الأرضية في مجالات التجسس والأبحاث العلمية، كما تُعدّ روسيا من أكبر الدول المنتجة للنفط الخام، والغاز الطبيعي،

وقد حققت روسيا ما بين عامي 2000 ~ 2006 معدل نمو اقتصادي بلغ 7%، كما كشفت منظمة التجارة الدولية أن روسيا حققت المرتبة الأولى عالمياً في نسبة النمو في صادراتها بنسبة 22% عام 2011، كما استمر النمو في وارداتها بنسبة 24% خلال نفس العام، وساعدها ارتفاع أسعار الغاز والبترول من ناحية، وتسارع معدلات الاستثمار الخارجي من ناحية أخرى على تدعيم اقتصادها بشكل كبير، وأصبحت تحتل المرتبة الثالثة عالمياً في احتياطي الذهب، ناهيك عن احتلالها المرتبة الثانية عالمياً في تصدير القمح لعام 2011،[1] إضافة إلى مركزها المحفوظ كعضو دائم في مجلس الأمن لديه حق الفيتو، وهذه المعطيات وغيرها كانت من أهم مقومات ودعائم قوة الاتحاد السوفييتي.

ولكن امتلاك هذه العناصر ليس كل شيء، وإذا كانت تؤهلها أن تكون دولة عظمى فإنها ليست كذلك – على الأقل في الفترة التي أعقبت الانهيار – ومن الواضح أن روسيا لم تعد قطباً موازياً للولايات المتحدة، ولديها من المشاكل الداخلية والأزمات الاقتصادية ما يمنعها من ممارسة الدور المتوقع منها على الساحة الدولية. فعندما جاء جورباتشوف للحكم ووجد البيروقراطية والترهل تنخران في مفاصل الدولة، تبنّى سياسة "الجلاسنوست" بدايةً لكشف مظاهر ضعفها أمام العالم، ثم سياسة "البيروسترويكا" لاحقاً، التي اعتقد الناس حينها أنها ترمي للهدم تمهيداً لإعادة البناء، وتبين أخيراً أنها ترمي للهدم تمهيداً للتفكيك، حينئذ بدأت عوامل التفكك والانهيار تطفو على السطح، وقد خرجت الأمور عن سيطرته، أو بمعنى أدق عن سيطرة اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، حتى انتهى الأمر بالانهيار المريع والسريع للاتحاد، وتفككه إلى سابق عهده أي كما كان قبل الثورة البلشفية.

---

(1) وليد عبد الحي: محددات السياستين الروسية والصينية تجاه الأزمة السورية، مركز الجزيرة للدراسات، 2012/4/3، http://studies.aljazeera.net/reports/2012/04/201243145439965550.htm

الحقبة الروسية الأولى

ما زاد من تعقيد الموقف الروسي في بداية الأمر هو تسلم الرجل المريض والمدمن على الكحول "يلتسين" دفّة الحكم، الذي وصل مستوى ضعف الدولة في عهده أن مبعوثه لمؤتمر مدريد "مايتنخ" لم يكن يملك تكاليف الإقامة في فنادق المدينة، الأمر الذي تكفلت به الخارجية الأمريكية. والذي كان من أبرز إنجازاته قصف مقر "الدوما" وإجهاض محاولات استعادة الدور السوفيتي العتيد،[2] وقيامه بما أسماه إصلاحات جذرية في الاقتصاد الروسي، من ضمنها الاستيلاء على مدخرات الناس في بنوك الدولة، وقيامه بعملية خصخصة ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً، جرى خلالها بيع الشركات والمؤسسات الحكومية الضخمة بأسعار بخسة، من بينها شركات التعدين والصناعات الثقيلة والخفيفة والشركات النفطية. ثم فتح البلاد أمام البضائع الأجنبية ليخنق الصناعة الوطنية التي لم تستطع الصمود أمامها، وعلى إثر ذلك ظهرت شريحة طفيلية من الأغنياء فاحشي الثراء، وطبقة واسعة من الفقراء المحرومين الذين كانوا يموتون برداً وجوعاً في الطرقات ومحطات المترو، وانتشرت الرشوة وعم الفساد بشكل لم يكن يعرف من قبل. وانتهى الأمر بأزمة اقتصادية خانقة، وتدهور سعر صرف الروبل أمام الدولار، وإفلاس عشرات البنوك والمؤسسات المالية الضخمة، وفقد الناس مدخراتهم من جديد، واضطر "يلتسين" إلى تعيين السياسي المخضرم "بريماكوف" وزير الخارجية في الحقبة السوفيتية رئيساً للوزراء، الذي استطاع خلال فترة وجيزة إعادة التوازن إلى الحياة الاقتصادية، وبدأ بمحاولات مستميتة لإعادة روسيا إلى مكانتها القيادية في الساحة الدولية، وبدأ الموقف الروسي حينئذ يتميز عن الموقف الأمريكي لأول مرة منذ سنوات عديدة.

لم تفلح جهود "بريماكوف" في مكافحة الفساد والانفلات الأمني، حيث بدأت المافيات تشن ضده حملات إعلامية لتشويه صورته، حتى قام "يلتسين" بإقالته عن منصبه، لتعود البلاد مرة ثانية في مواجهة أزماتها السياسية والاقتصادية، والتي

---

[2] فشل محاولة انقلاب الجنرال يانابيف، وقصف مقر الدوما حين تحصن به حسباللاتوف عام 1992.

تزامنت مع تحرك الانفصاليين في "القفقاص" من جديد، الأمر الذي دعا "يلتسين" إلى تعيين "فلاديمير بوتين" رئيساً للوزراء [3].

"بوتين" ضابط استخبارات سابق. وهو على عكس سلفه المريض، رياضي حائز على الحزام الأسود في التايكوندو، ولديه طموح قومي بإعادة أمجاد روسيا القيصرية وبناء الإمبراطورية الروسية الثالثة؛ استلم جهاز الأمن الروسي بعد ولاية "يلتسين" الثانية واستطاع بروية وهدوء إعادة تنظيمه، وقد أبدى حِكمة فائقة خلال عمله كرئيس للوزراء، فلم يصطدم مع مراكز القوى المسيطرة على رأس المال والإعلام، وقام بجهد ملحوظ لمنع انتشار الحرب الانفصالية في القفقاص إلى جمهوريات ومقاطعات أخرى.

وقد ورث دولة منهكة تواجه حروباً انفصالية، وأزمات اقتصادية حادة، ومراكز قوة مالية وإعلامية تشيع الفساد في أنحاء البلاد، ومنذ بداية حكمه أخذ موقفاً حاسماً من الإرهاب الداخلي في حرب الشيشان، ثم قام بتحديث الجيش، الذي بدأ ولأول مرة بتنفيذ مناورات عسكرية في البحر والبر والجو، واستطاع خلال فترة قصيرة استعادة جمهورية الشيشان إلى أحضان الدولة، ثم نجح في استعادة سيطرة الدولة على القناة الفيدرالية الأولى للتلفزيون. وبدأ بعدها بحملة واسعة ضد المتهربين من الضرائب، تلتها خطوة إصلاح السلطة التنفيذية، والتي على أساسها تم تقسيم البلاد إلى مقاطعات يتم تعيين حكامها بترشيح من رئيس الدولة بهدف دعم وحدة أراضي روسيا، وإبعاد خطر النـــزعات الانفصالية عنها. وفي إشارة إلى توجهاته الطموحة أصدر "بوتين" مرسوماً بتبني لحن النشيد الوطني للاتحاد السوفيتي السابق لحناً للنشيد الوطني لروسيا.

(3) دين ورويسكي فداماستي: بوتين وانبعاث الروح الوطنية في روسيا، ترجمة أديب فارس، صحيفة الثورة السورية 2/6/ 2005.

http://thawra.alwehda.gov.sy/_print_veiw.asp?FileName=10396854112005020719540 7

مؤخــراً، وبعد أن استتب الأمــر للثنائـــي المتناغــم "بوتين" رئيـــس الـــوزراء و "ميدفيديف" رئيس الدولة، ينتظر الروس الذين منحوهما ثقتهم أن يعملا على تنفيذ وعودهما بوضع البلاد على سكة تحديث مقوماتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مركّزين على الجوانب المتعلقة بالتعليم وقطاع التكنولوجيا الحديثة، والصحة والسياحة ومواجهة الفقر ومكافحة الفساد الإداري والمالي،[4] بينما هما يطمحان لاستعادة روسيا كقوة عظمى، ولاعب أساسي في الساحة الدولية، وقطب هام من أقطاب النظام الدولي الآخذ بالتشكل، خاصة بعد ظهور علامات تراجع القوة الأمريكية.

الحرب الباردة من جديد

عناصر القوة الروسية التي أشرنا لها كانت مغيبة في عهد "يلتسين"، ولم تكن تحتاج لاستنهاضها إلا لرجل بمواصفات "بوتين"، والذي بفضل رؤيته ومثابرته تمكنت روسيا من تجاوز أزماتها الداخلية، وإعادة هيكلة البيت الداخلي سياسياً واقتصادياً، ومن تطوير سياستها الخارجية بشكل يصعب تجاهله، إذ أصبحت مؤهلة للمشاركة في اللعبة السياسية الدولية بكفاءة وفاعلية، وتستطيع أن تلعب دوراً كبيراً في أمن واستقرار الشرق الأوسط، في الوقت الذي يشهد فيه العالم تغيرات في الاصطفافات السياسية والاقتصادية، وانتهاءً تدريجياً لمرحلة القطب الواحد، متمثلاً بالفشل الذريع للسياسات الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، وحروبها الكارثية في كلّ من العراق وأفغانستان، وتدخلاتها السافرة في الشؤون الداخلية لبقية دول المنطقة.[5]

ومن هذه النقطة، تراقب روسيا بل وتعمل من تحت الطاولة وفوقها على استمرار إخفاق المشروع الأمريكي الأحادي في العالم وفي الشرق الأوسط خصوصاً، وهي حين عارضت الحرب على العراق كانت تدرك تماماً أن المستنقع العراقي لن يكون

---

(4) ريا نوفوستى: مهمة الرئيس الروسي الجديد .. وضع روسيا على طريق التحديث، وكالة الأنباء الروسية، www.ru4arab.ru/cp/eng.php?i

(5) خليل درويش، صحيفة أنباء موسكو 2009/10/1.

أسهل من المستنقع الأفغاني الذي وقع فيه الاتحاد السوفيتي، وكما كلف السوفيت مادياً ومعنوياً وكان من بين عوامل نهايتهم، تدرك روسيا تماماً أن الإخفاق الأمريكي في العراق وأفغانستان سيدق مسماراً في نعش القطبية الأمريكية الأحادية، وسيخلف فراغاً سياسياً وعالمياً في خارطة النظام العالمي الجديد، سيتيح المجال أمامها للعودة مرة ثانية إلى الساحة الدولية والشرق أوسطية.[6]

وقد برزت مظاهر عودة الحرب الباردة بين روسيا والولايات المتحدة في السنوات الأخيرة، عبّرت عنها وجسدتها بعض الأحداث والنقاط الساخنة على امتداد العالم، وفي الشرق الأوسط، هي تعكس تناقضات أساسية بين التوجهات الروسية والسياسة الأمريكية. أولها موضوع نشر شبكة الصواريخ الأمريكية في دول أوروبا الشرقية - التي انضمت إلى حلف الناتو - الأمر الذي يعني أن تكون كل روسيا تحت رحمة هذه الصواريخ. وبالتالي في متناول يد القوة العسكرية الأمريكية المتمركزة هناك. ويعني أيضاً تكريس عملية تحوّل هذه الدول من التبعية لموسكو إلى التبعية لواشنطن، وبالتالي من العداء للولايات المتحدة إلى العداء للاتحاد الروسي. وهذا ما تجد روسيا صعوبة في تقبله.

نقطة الصدام الثانية هي البلقان؛ فالولايات المتحدة تدعم استقلال كوسوفو عن الاتحاد اليوغسلافي السابق، والتي لا تزال حتى اليوم جزءاً من صربيا، رغم أن أكثر سكانها يختلفون عن الصرب إثنياً ودينياً. والتحالف الصربي الروسي يملي على الكرملين موقفاً رافضاً لاستقلال كوسوفو؛ ذلك أن إقرار الفصل بين صربيا وكوسوفو على قاعدة التمايز الديني والعنصري، يشكل مبرراً لإقرار انفصال الشيشان أيضاً عن الاتحاد الروسي، وهو ما يرفضه الكرملين بشدة.

الأمر الثالث هو انتشار القواعد العسكرية الأمريكية في دول وسط آسيا التي استقلّت عن الاتحاد السوفيتي، وخاصة في كازاخستان وتركمانستان وأذربيجان، وهي

---

[6] د. سعيد مسلم : العودة الروسية إلى الشرق الأوسط، الثورة، مركز المعطيات والدراسات الإستراتيجية.

الدول المشتركة مع روسيا وإيران في بحر قزوين الغني بالنفط والغاز. وهذا يعني مزاحمة أمريكا لروسيا على منطقة تعتبرها تاريخياً تابعة لها، وعلى ثرواتها ومصادر الطاقة فيها، والأهم من هذا تطويقها لروسيا من كل الجهات بقواعد عسكرية أمريكية وبدولٍ تدور في فلكها، وهذا يشكل تهديداً لأمنها القومي.

وربما لهذه الأسباب أخفقت قمة قزوين للدول المتشاطئة حوض بحر قزوين (روسيا وإيران وكازاخستان وأذربيجان وتركمانيا) في التقدم في قضية تحديد الوضع القانوني للبحر، وتقسيم الجرف والقاع وسطح ماء البحر إلى قواطع تابعة للدول المطلة عليه[7]. فرغم مرور سنوات طويلة على المباحثات المشتركة بين هذه الدول للاتفاق على طريقة تقاسم هذه الثروة الضخمة من الطاقة، فإن دولاً عديدة منها اختارت تحويل مجرى خطوط نفطها وغازها بحيث تتجنب المرور عبر الأراضي الروسية، وذلك لتعطيل أي دور سياسي روسي في توظيف مرور هذه الأنابيب عبر أراضيها. وهذا ما تراقبه روسيا بقلق شديد، كما أن ربط هذه الدول (وكلها دول إسلامية) بالولايات المتحدة وبمعسكرها السياسي العسكري، يعني توسيع الفجوة السياسية والثقافية بين روسيا وهذه الدول التي كانت تابعة لها يوماً ما. لا بل إن إقامة القواعد والمنشآت العسكرية الأمريكية في هذه الدول سيضع روسيا بين فكي كماشة عسكرية أمريكية. من الشرق (آسيا الوسطى) ومن الغرب (أوروبا الشرقية). وهاتان المنطقتان كانتا جزءاً من الاتحاد السوفيتي السابق، وكانتا جناحي حماية قلب ذلك الاتحاد.[8]

النقطة الرابعة وربما الأهم هي الشرق الأوسط، بملفاتها الساخنة التي تشهد تبايناً واضحاً في المواقف بين روسيا والمجتمع الدولي، خاصة في ملفات إيران والعراق ولبنان وفلسطين. ويظهر ذلك جلياً من خلال دعمها وتسليحها لسوريا وحمايتها في مجلس الأمن من فرض مزيد من العقوبات عليها، وعلاقتها غير المباشرة بحزب الله، واستقبالها لقيادات حماس، ودعمها الواضح للسلطة الفلسطينية، ودعوتها لعقد مؤتمر

---

(7) غازيتا، وكالة نوفوستي الروسية للأنباء، 2007/10/17.

(8) محمد السمّاك: الصراع الأمريكي- الروسي على الشرق الأوسط، المستقبل اللبنانية، 2007/8/7.

دولي للسلام في موسكو، وموقفها الداعم والحامي لإيران في مسعاها لدخول النادي النووي.

النقطة الخامسة تقع على خاصرة روسيا الجنوبية، وقد اشتعلت هذه النقطة عام 2008 بعد أن شنت جورجيا حرباً على أوسيتيا الجنوبية، مما دفع بالروس للاعتراف باستقلال أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، الأمر الذي عرّضها لموجة من الانتقادات الخارجية، وبشكل خاص من قبل دول الغرب وأمريكا تحديداً. التي حذرتها من عزلة على الساحة الدولية, وفي هذه المواجهة زودت إسرائيل جورجيا بالأسلحة ودعمتها بالعسكريين الإسرائيليين. ونشير إلى أن التقارب المميز بين إسرائيل وجورجيا متوقَّع؛ نظراً لوجود جالية من اليهود الجورجيين في إسرائيل تزيد عن 100 ألف يهودي. وقد هددت روسيا بأنها سترد على مساعدة إسرائيل لجورجيا بموافقتها على بيع صواريخ (إسكندر) لسورية، وبتوطيد التعاون في المجال العسكري التقني معها، وقد امتدت الأزمة الجورجية للساحة الدولية، خاصة بعد أن تم ضم كل من جورجيا وأوكرانيا إلى حلف الناتو، مما دعا روسيا للرد بتزويدها لإيران بالأسلحة ودعمها لها في ملفها النووي، وكذلك دعمها لسوريا وفنزويلا.

ولم تكتف روسيا بهذه الإجراءات فقامت بطلعات جوية تدريبية لقاذفاتها الإستراتيجية في منطقة بحر الكاريبي، وأرسلت سفنها استعداداً لمناورات بحرية مشتركة مع القوات البحرية الفنزويلية. وفي هذه المناورات والتحركات الروسية التي تجري في منطقة المصالح الأمريكية تحد واضح لواشنطن[9].

وعلى صعيد آخر، تعاني العلاقات البريطانية ـ الروسية انتكاسة حادة. وقد أعادت هذه الانتكاسة إلى الأذهان شكل العلاقات بين الدولتين خلال الحرب الباردة. والسبب المباشر للأزمة بين البلدين، هو اغتيال ضابط سابق في المخابرات الروسية في لندن. مما دعا لندن لتحميل مسؤوليتها المباشرة لموسكو، والمطالبة بتسليمها المتهم

---

[9] ماريا أباكوفا : إلى أين سياسة روسيا في الشرق الأوسط، الجريدة، 2008/10/13.

بتنفيذ الاغتيال، وهو ضابط في المخابرات الروسية لمحاكمته أمام القضاء البريطاني. ومن جهتها نفت موسكو التهمة عن نفسها وعن عميلها، ورفضت الاستجابة لطلب تسليمه ومحاكمته. ولكن الأمر لم يبق محصوراً في نطاقه القضائي بل امتد إلى النطاق الدبلوماسي، حيث جرى تبادل لطرد الدبلوماسيين، ومن ثم إلى النطاق السياسي حيث جرى توقيف التعاون الأمني بين البلدين[10].

محددات السياسة الروسية الخارجية

في موضوع محددات السياسة الخارجية الروسية، فإن روسيا شأنها شأن الدول العظمى توازن بين المحددات المحلية والدولية؛ وبين الاعتبارات الداخلية والخارجية، بل وتسعى لأن توظف السياسة الخارجية بما يحقق مصالحها الداخلية. وعند الحديث عن الدور الروسي في المنطقة العربية، لا يمكن فهم المحددات دون النظر إلى تاريخية هذا الدور، خاصة في ظل الحقبة السوفيتية، كمدخل لقراءة الدور الراهن أو لفهم مدى إمكانية إعادة تفعيله. فقد ارتبطت بعض دول المنطقة بعلاقات إستراتيجية مع السوفيت، وهي الآن في طور تعميق هذه العلاقات مع وريثتها الروسية، من خلال متابعة المواثيق والمعاهدات المبرمة مع الاتحاد السوفيتي، مع الأخذ بعين الاعتبار اختفاء الطابع الأيديولوجي الذي كان ينطلق منه النظام السوفيتي السابق. وهذه العلاقات الروسية مع دول المنطقة لا تزال تحتفظ بمبرراتها وأسبابها، خاصّة أن روسيا ما زالت تمسك بأكثر من ورقة من أوراق اللعبة السياسية، من خلال علاقاتها المتميزة والتاريخية مع الجزائر وسورية والعراق وإيران ولبنان وفلسطين.

وقد اتضحت الأهداف والمعالم المستقبلية للسياسة الروسية الراهنة، مع الإعلان عن خطة إستراتيجية في العام 2008 عرفت بخطة "بوتين"، والتي تهدف إلى إخراج روسيا من تحت ركام البيروسترويكا التي وصفها البعض بسكرة الموت، وما أعقبها

---

(10) د.سعيد مسلم، مرجع سابق.

من حالة ضعف وترهل، لتلعب دوراً إقليمياً ودولياً فاعلاً يتناسب مع حجمها وإمكاناتها.

وتنطلق السياسة الروسية الجديدة من رؤيتها لأهمية القيمة الجغرافية والإستراتيجية لمنطقة الشرق الأوسط، باعتبارها تحتل مكان الصدارة في سلم الاهتمامات العالمية، وأنه لا يمكن لأي نظام عالمي أن يتشكل بعيداً عن تلك المنطقة الإستراتيجية، لما تمثله من قلب للعالم، فيها يتقرر مراكز التوازنات والقوى. ولكونها تمثل منصة ارتكاز ورافعة سياسية لأي دور محتمل لأي قوة أمريكية كانت أم روسية أم أوروبية. وتعتقد روسيا أن إمكاناتها وإرثها السياسي وتوجهاتها الحالية تؤهلها لحجز مكان بارز في خارطة تشكل العالم الجديد. ومع ذلك تعمل روسيا بحذر في هذه المنطقة المليئة بالألغام السياسية، وتحاول أن لا تخسر أحداً من الأطراف؛ فمثلاً تدعم إيران مع محاولتها أن لا يجلب ذلك استعداء دول مجلس التعاون لها. كذلك تدعم سورية مع مراعاتها أن لا تثير قلق الدول العربية الأخرى.

وهكذا أصبح بالإمكان الحديث عن "بيروسترويكا بوتين"، أو "روسيا الجديدة"، بعد أن أدركت حجم خسائرها الناجمة عن إهمال هذه المنطقة، وشروعها بالبحث عن مصالحها المفقودة أو المتراجعة، وخصوصاً في الشرق الأوسط، ومحاولتها إنهاء مقولة "أوراق اللعبة كلها في يد واشنطن" التي روّج لها البعض.

ومن الجدير بالذكر أن السياسة الروسية الجديدة في المنطقة وفي العالم بشكل عام لا تعتمد على توظيف المال، خلافاً لسياسة الولايات المتحدة التي تخصص أموالاً طائلة في مشاريع سياسية وعسكرية خارج أراضيها. وربما كانت بلدان رابطة الدول المستقلة ودول البلطيق استثناءً من هذه السياسة، باعتبارها تمثل الفضاء السوفيتي السابق، كما أن روسيا لا تقدم منحاً ومساعدات مادية للدول الأخرى. ومعظم المساعدات الروسية تنحصر بصورة أساسية إما على شكل إلغاء القروض السوفيتية القديمة، وإما في استثمارات في مشاريع اقتصادية. ولكن حجم الاستثمارات الروسية في بلدان الشرق الأوسط يبقى في الغالب أقل بكثير من استثمارات الدول

الصناعية الأخرى. وكذلك تمتنع روسيا عن تمويل أية مشاريع سياسية خارج أراضيها، وهذا يقلل بشكل ملموس من إمكانية تأثيرها السياسي في الخارج. كما بدأت روسيا بإيلاء البعد الإعلامي الاهتمام الذي يستحقه، وافتتحت محطة فضائية روسية ناطقة بالعربية (روسيا اليوم)، ومن ناحية أخرى فإن روسيا بالرغم من كونها راعية لعملية السلام وعضواً في الرباعية الدولية إلا أنها لا تستطيع حالياً الادعاء بأنها ساعدت بشكل كبير ومؤثر على تحقيق تقدم في التسوية السلمية في الشرق الأوسط، أو في حل المسألة الإيرانية وغيرها من مشاكل المنطقة.[11].

ولكن طموحها السياسي ورغبتها العودة للمنطقة، ولعب دور فاعل فيها يتطلب منها الحفاظ على علاقات الاتحاد السوفيتي القديمة مع النخبة السياسية في الشرق الأوسط، من مختلف التيارات السياسية وليس فقط مع الشيوعيين، بل وحتى مع الإسلاميين؛ لذلك فقد أبقت روسيا على مدرسة الدبلوماسية الشرق أوسطية كما أسس لها السوفيت. وهي في الوقت الذي تسعى لتحسين علاقاتها مع الدول العربية والإسلامية فإنها تحتفظ بعلاقات وطيدة مع إسرائيل، ليس فقط بسبب وجود الجالية الروسية الكبيرة في إسرائيل بل من منطلق فهمها السياسي لمعادلات النظام الدولي.

وفي هذا الصدد فإن روسيا بدأت بالتحلي بالحذر واتباع سياسات أكثر براجماتية، سيّما وأنها تخلت عن الاعتبارات الأيديولوجية التي كانت منطلق السياسات السوفيتية سابقاً، وأخذت تسترشد بمصالحها أولاً؛ فروسيا اليوم ليست هي الاتحاد السوفيتي السابق الذي كان يعطي من دون مقابل، لمجرد الصداقة أو الدعاية الأيديولوجية. وروسيا الآن ليست على عداء مع أمريكا ولا مع إسرائيل، بل لها معهما مصالح كثيرة متبادلة وربما تكون أكثر من مصالحها مع العرب، وبالتالي فالمبادرات الآن مطلوبة من قبل العرب وليس من قبل روسيا، وربما تكون السعودية بالتحديد قد استوعبت هذا

---

(11) ماريانا بيلينكايا: المعلقة السياسية لوكالة نوفوستي الروسية للأنباء www.ru4arab.ru.

الواقع الجديد قبل غيرها وبادرت بتطوير علاقاتها بروسيا، وأصبحت هذه العلاقات الآن مصدر قلق كبير لدى واشنطن.[12]

فإذا كان العرب يعانون من الهيمنة الأمريكية، ومستائين من الانحياز الأمريكي لصالح إسرائيل، ويبحثون عمن يخفف عنهم عبء الضغوط والمساومات والمناورات الأمريكية والإسرائيلية، فإن أمامهم الآن فرصة تاريخية لخلق توازن للقوى في المنطقة يمكن أن يغير من موازين القوى، وما هو مطلوب منهم بالتحديد دعم الدور الروسي وتعميق علاقاتها معها، على الأقل باعتبار أن روسيا قريبة جغرافياً وتاريخياً من العرب، ويهمّها أمن واستقرار المنطقة، ولديهما مصلحة مشتركة في تقليص النفوذ الأمريكي في المنطقة ومنع تزايد هيمنتها.

السياسة الروسية في المنطقة العربية

قبل دخولها إلى قلب الشرق الأوسط الملتهب، كان على روسيا الولوج عبر سورية البوابة الشمالية للشرق العربي، ومفتاح الاستقرار فيه، وعبر تركيا الجسر الواصل بين الشرق والغرب، وعبر إيران البوابة الشرقية للمنطقة العربية، وهذه المنطقة التي تجسدها ثلاث دوائر جغرافية متجاورة، تزداد أهميتها مع الوجود الأمريكي في قلبها وأطرافها (العراق وأفغانستان) دون أن نغفل وجود إسرائيل. وفي هذا الصدد تنطلق روسيا في توجهاتها السياسية في المنطقة من معايير ومحددات معينة، منها وجود جالية روسية كبيرة ومؤثرة في إسرائيل، وباعتبارها عضواً دائماً في مجلس الأمن، وجزءًا من "الرباعية الدولية".

المعلقة السياسية لوكالة نوفوستي الروسية "ماريانا بيلينكايا" تعتبر أن سياسة موسكو الراهنة لا تعدو عن كونها وسيطاً لبقاً بين أطراف متنازعة، وأن غايتها ليست المواجهة مع أي طرف من أطراف الصراع، وإنما تحقيق الاستقرار هناك، وهي –

---

[12] مغازي البدراوي : استدعاء الدور الروسي في الشرق الأوسط، صحيفة الوقت البحرينية، العدد 644، 26 نوفمبر 2007.

حسب ماريانا – سياسة تختلف تماماً عما يدور في خُلد دول المنطقة وعما تريده من روسيا. وتضيف "ماريانا" أن روسيا لم تولّ منطقة الشرق الأوسط الاهتمام الكافي في حقبة التسعينيات، بحكم الظروف التي كانت تمر بها آنذاك، ولم تلتفت كثيراً للنـزاع العربي الإسرائيلي، بل كانت سياسة روسيا الخارجية موجهة للغرب عملياً، هذا بالرغم من أنها أصبحت عشية انهيار الاتحاد السوفيتي إلى جانب الولايات المتحدة راعياً للعملية السلمية التي انطلقت في مدريد. إلا أن رعايتها للتسوية كانت أشبه بمحاولة للحفاظ على مكانتها على الساحة الدولية. وكانت إعادة روسيا علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل عام 1991 القضية الملموسة الوحيدة في سياستها في الشرق الأوسط في تلك الفترة.

وإذا كانت موسكو في بداية التسعينيات تؤدي هذا الدور شكلياً، فإن دورها الآن يتجاوز هذا بكثير. وبدءًا من العام 2000 أخذ الوضع يتغير. فقد أعادت روسيا بالتدريج الحوار مع العالم العربي، وبدأ الدفء يدبّ في جسد علاقاتها الاقتصادية مع الشرق الأوسط بعد أن كادت تفقدها، كما أقامت صلات جديدة.

فقد زار الرئيس "بوتين" مناطق السلطة الفلسطينية عام 2005، ومرة ثانية زارها الرئيس "ديميديف" العام 2011، وفي المرتين كان في استقبالهما الرئيس "محمود عباس" الذي أقام لهما مراسم رسمية تتطابق تماماً مع المراسم التي تجري بين الدول، وكان هذا مؤشراً على سياسة روسيا الداعمة لإقامة دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران وفق قرارات الشرعية الدولية، وهي نفس السياسة السوفيتية السابقة وامتداد لها. حتى أن الرئيس "بوتين" كان قد تبرع في زيارته الأولى للسلطة بخمسين ناقلة جند ومروحية، إلا أن إسرائيل رفضت السماح بإدخال هذه المساعدات.

ومن جهة ثانية، وللتعبير عن موقفها من الانقسام الفلسطيني، فقد رحبت روسيا باتفاق الدوحة بين حركتي فتح وحماس بشأن تشكيل حكومة توافق وطني برئاسة محمود عباس، تؤدي لإنهاء الانقسام. واعتبر "لوكاشيفيتش" المتحدث باسم الخارجية الروسية بأن هذا الاتفاق خطوة في اتجاه إعادة وحدة صفوف الفلسطينيين وفقاً لاتفاقية

القاهرة لعام 2011 وعلى أساس إعادة الاعتبار لمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني، والمبادرة العربية للسلام كأساس للحل، مشيراً إلى أن تشكيل حكومة فلسطينية تكنوقراطية برئاسة عباس، الذي أثبت تمسكه بالتسوية السلمية للقضية الفلسطينية، على أساس مبدأ الدولتين، سيكون خطوة مفيدة من وجهة نظر المصالح الفلسطينية، وكذلك عملية المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية.

وفي نفس السياق أكدت روسيا دعوتها الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي إلى مواصلة الجهود الرامية إلى تهيئة الظروف الملائمة لاستئناف المفاوضات المباشرة والجدية لتنفيذ الخطة التي أعدتها اللجنة الرباعية بشأن التسوية. وأكد الدبلوماسي الروسي بأن الأحداث الثورية في المنطقة يجب ألا تحد من الاهتمام بالتسوية العربية الإسرائيلية العادلة.(13)

وفي العام 2006 زار "بوتين" كلاً من المغرب والجزائر، وقد اكتسبت زيارة الجزائر أهمية خاصة، ليس في نطاق تطوير العلاقات الثنائية بين البلدين وحسب، بل في نطاق تطوير العلاقات الاقتصادية نظراً لأن حصة البلدين تصل إلى ما يقارب 40% من مجمل الاستيراد الأوروبي من الغاز،(14) وكان لهذه الزيارة صدى قوي على المستوى العالمي، لأنها تعرضت لمسألة حيوية تهم العالم بأسره وخاصة أوروبا وهي الطاقة، وخصوصاً مع التوجهات الراهنة لإنشاء تكتل روسي جزائري لصناعة الغاز، يكون نواة للتكتل الغازي العالمي على غرار أوبك العالمية، ولأنها من ناحية ثانية عوضت الخسارة الروسية المتمثلة بفقدان روسيا شريكها الاقتصادي الهام الوحيد تقريبا في المنطقة أيام الحقبة السوفييتية، وهو العراق الذي بات في القبضة الأمريكية نفطا وأرضاً ومجالاً حيوياً؛ وبهذا تكون روسيا قد عادت للمنطقة من جديد.

---

(13) محطة روسيا اليوم، روسيا ترحب باتفاق فتح وحماس بشأن تشكيل حكومة التوافق،
http://arabic.rt.com/news_all_news/news/578156/

(14) ماريانا بيلينكايا، مرجع سابق.

وفيما يخص موقف روسيا من العراق الجديد، بعد الاحتلال الأمريكي، فقد تابعت كل من القوى اليسارية واليمينية في روسيا الغزو الأمريكي للعراق (2003) بتعاطف كبير، مع تمني النصر للعراقيين، وقد خرجت المظاهرات الشعبية في كبريات المدن الروسية تندد بالغزو الأمريكي. أما على المستوى الرسمي فقد اتسم موقف "بوتين" تجاه الغزو الأمريكي للعراق بدايةً بالسلبية، ولكن بعد سنوات من الاحتلال الأمريكي للعراق بدأت معالم السياسة الروسية تجاه هذا الموضوع تتضح أكثر؛ فقد تحالفت موسكو مع برلين وباريس لخلق محور رفض في القارة الأوروبية ضد الهيمنة الأمريكية، وإن لم يشكل هذا التحالف بعد نتائج ملموسة على الأرض، فإنه يشكل ضغطاً على لندن وواشنطن، ويوصل رسالة إلى العالم بأن ما يجري في العراق ليس مشروعاً "دولياً"، بل هو هيمنة أمريكية.[15]

كما أعلنت كل من روسيا وفرنسا رفضهما أي دور للناتو في العراق، وفي هذا المعنى رفض للهيمنة الأمريكية على العراق من ناحية، ومن ناحية ثانية هي استغلال للظرف التاريخي المتاح حالياً لوقف المشروع الأمريكي الساعي لوصل حلقات القواعد العسكرية الأمريكية من إنجرليك في تركيا إلى قاعدة السيلية في قطر وغيرها في الخليج العربي، وصولاً إلى قاعدة لي موني باراكس في جيبوتي (وغير بعيدة قاعدة ديغو غارسيا في خليج عُمان، وثلاث حاملات للطائرات أمام سواحل سوريا ولبنان وفلسطين المحتلة).[16]

أما موقفها من العراق نفسه، فإن الخطوة التي قامت بها موسكو تجاهه هي إسقاط الجزء الأكبر من ديونها عليه، وهي دلالة على دعم العراق الجديد دون التورط فيه، وإذا أبدت روسيا قلقها وانزعاجها مما يحدث في العراق، إلا أنها في حقيقة الأمر يسعدها هذا التورط الأمريكي في مستنقع العراق، ويحدوها الأمل في أن يؤدي فشل

---

[15] عاطف معتمد عبد الحميد، الموقف الروسي من احتلال العراق، الجزيرة نت – المعرفة،

http://www.aljazeera.net/analysis/pages/3eec40de-9df5-4822-b04d-c6decac63c42

[16] المرجع السابق نفسه.

واشنطن في العراق إلى انكماش طموحاتها الإمبريالية عقداً أو عقدين، وهي الفترة التي تحتاجها روسيا لتقف على قدميها وتستعيد نفوذها الدولي.

وقد ظلت روسيا منذ انهيار النظام السابق بالعراق تراقب عن كثب تطورات الوضع فيه، وتبذل المحاولات للعثور على وسائل لاستعادة شيء من نفوذها المفقود هناك. وإذا ما فشلت في دخول العراق من خلال بغداد، فإنها ستدخل من بوابة كردستان، لذلك فقد افتتحت قنصلية لها في أربيل. وعلى هذا الصعيد لا يمكن فهم زيارة السياسي المخضرم "بريماكوف" لإقليم كردستان (2008) بصفته رئيس غرفة التجارة والصناعة، على أنها زيارة اقتصادية وحسب؛ فالمنطقة ذات أهمية إستراتيجية هامة بالنسبة لروسيا، نظراً لعلاقاتها بالقوقاز وقربها من حدودها الجنوبية، وغناها بموارد الطاقة التي جعلت من يسيطر على مسالكها يتحكم بالقرار الدولي. وكان رئيس إقليم كردستان "مسعود بارزاني" قد تقدم بطلب لشراء دبابات من روسيا والجبل الأسود، إلا أن هذه الدول رفضت طلبه، بسبب عدم أخذه موافقة الحكومة المركزية في بغداد. وخشيتها من تحول منطقة كردستان العراق إلى ملجأ لأصحاب السوابق والمطلوبين للعدالة.[17]

وعلى الصعيد الاقتصادي، بعد الحرب، وفرض السيطرة الأمريكية على النفط العراقي، استفادت روسيا من ارتفاع أسعار النفط، الراجع في جزء منه إلى الوضع في العراق، وهو ما حقق انتعاشة اقتصادية كانت تحتاجها الخطط الاقتصادية الروسية، ولكن في المقابل فقدت روسيا مزايا عدة إثر الغزو الأمريكي للعراق، لعل أهمها خسارتها نحو عشر شركات نفطية كانت تعمل في جنوبي العراق بعقود قيمتها نحو ستة مليارات دولار. كما تعطلت الشراكة الاقتصادية مع العراق بعد أن كانت موسكو وقعت مع بغداد قبل الغزو عقوداً قيمتها 40 مليار دولار لإتمام أكثر من مائة مشروع بأيد روسية. كما كانت روسيا المصدر الأول لتجهيزات الجيش العراقي، وللمعدات

---

[17] فالح الحمراني: روسيا تدخل الصراع على كردستان، الحوار المتمدن، العدد 2300، 2008/6/2،
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=136518

الصناعية والزراعية الثقيلة، ومصدر توريد وتشغيل محطات توليد الطاقة في مواقع عراقية مختلفة.[18]

وبعد أن سقط المبرر الأيديولوجي المعيق لنشوء أي علاقة بين الاتحاد السوفيتي ودول الخليج العربي، بدأت روسيا بتعزيز علاقاتها مع هذه الدول، وبالأخص مع المملكة العربية السعودية، ويدور الحديث الآن عن حوار سياسي بينهما، لتطوير علاقات اقتصادية تجارية لم تكن ممكنة أبداً في العهد السوفيتي. أما الإمارات العربية المتحدة ذات التوجه الليبرالي فتنظر إليها روسيا على أنها تمثل ظاهرة فريدة على خريطة العالم العربي وخريطة العالم عموماً، وتسعى لتطوير علاقتها معها، كونها مركزاً نفطياً كبيراً ومركزاً تجارياً عالمياً، ولأنها تضم حالياً أكبر جالية روسية في منطقة الخليج.

أما مصر التي أخرجت الخبراء السوفيت وتخلت عن علاقاتها التاريخية معهم في مستهل عهد السادات، فقد أخذت تنشأ علاقات طيبة بينها وبين روسيا، كما تحسنت العلاقات الروسية مع الأردن، وتجدد الحوار مع سوريا عام 2005. بالرغم أن العلاقات الروسية مع القاهرة ودمشق وعمّان لم تنقطع خلال عقد التسعينيات، ولكنها ظلت فاترة، ولم تبرم أي عقود جدية في مجال التجارة والاقتصاد، ولم يكن هناك أي تعاون فعلي في الميدان السياسي. ولكن في عهد "بوتين" حدث انعطاف واضح في العلاقات الروسية مع دول المنطقة.

وبعد اندلاع الانتفاضة الشعبية في سوريا في آذار 2011 وقفت روسيا إلى جانب النظام، ورغم الانتقادات الواسعة التي تعرضت لها، ورغم تعرض علاقاتها مع بعض الدول العربية للخطر، إلا أنها أصرت على موقفها في منع أي تدخل عسكري في سوريا، أو فرض مزيد من العقوبات عليها، حيث تخشى أن يكون ذلك غطاءً لفرض مزيد من الهيمنة الأمريكية في المنطقة، فإذا كانت قد عارضت (على استحياء) تدخل

---

[18] عاطف معتمد عبد الحميد، مرجع سابق.

"الناتو" في ليبيا،؛ فإنها ترفض بشدة تكرار التجربة في سوريا، لأن ذلك سيتيح موطئ قدم أمريكي في قلب سوريا بعد الإطاحة بالنظام كما حدث في العراق. هذا الموقف الروسي أثار حفيظة قطاعات واسعة من الجماهير العربية، التي رأت فيه موقفاً لا إنسانياً، وأنه يوفر الغطاء للنظام السوري للمضي قدماً في قمعه الدموي للانتفاضة السورية. أما روسيا فتنطلق في هذا الموقف من تصميمها على حماية مصالحها الإستراتيجية في واحدة من أهم مناطق العالم، وفي دولة تعتبر حليفة لها؛ إذ تشكّل التجارة الروسية-السورية ما نسبته 20% من إجمالي التجارة العربية-الروسية، وهي في تنام مستمر؛ وتصل الاستثمارات الروسية في سوريا إلى حوالي 20 مليار دولار. ومن ناحية ثانية تشكّل القاعدة البحرية في سوريا (طرطوس) القاعدة الوحيدة لروسيا على شواطئ البحر المتوسط، وهي موجودة عملاً باتفاقية قديمة بين البلدين تعود لعام 1971، ولكن استمرارها كلّف روسيا إعفاء لسوريا من ديون بلغت 9.8 مليار دولار عام 2006، إلى جانب حصول روسيا على بعض التسهيلات في اللاذقية. كما تُعد سوريا إحدى الدول المهمة لسوق السلاح الروسي؛ وسوريا متعاقدة مع روسيا على صفقات عسكرية بقيمة أربعة مليارات دولار حتى عام 2013. وإذا كانت روسيا تساند سوريا الآن، فإن سوريا كانت من بين قلة من الدول التي أعلنت تأييدها للعملية العسكرية الروسية في جورجيا عام 2008، وتأييدها السياسات الروسية في الصراع الداخلي في داغستان والشيشان.(19) لكن ذلك لا ينفي إمكانية تغيير موقف روسيا، خاصة إذا أحست بقرب انهيار النظام، وتأكدت أنه لا يُراهَن على بقائه.

وفي موضوع السودان أكد المتحدث باسم الخارجية الروسية "لوكاشيفيتش" في حديث لمحطة روسيا اليوم، أن روسيا لا تعتبر تشديد عقوبات مجلس الأمن الدولي المفروضة على السودان أمراً ضرورياً. مضيفاً بأنه بدلاً من تشديد العقوبات يجب استخدام العقوبات الحالية بشكل أكثر فعالية، من أجل ضمان حظر تصدير الأسلحة إلى

---

(19) وليد عبد الحي: محددات السياستين الروسية والصينية تجاه الأزمة السورية، مركز الجزيرة للدراسات، 2012/4/3، http://studies.aljazeera.net/reports/2012/04/201243145439996550.htm

دارفور من قبل جميع أعضاء مجلس الأمن الدولي. مؤكداً أن موسكو تصدر الأسلحة إلى السودان في إطار القانون الدولي، وتضمن ألا تُستخدم هذه الأسلحة في دارفور، من خلال آلية الرقابة على المستهلك الأخير لهذه الأسلحة.[20] أما بشأن الموقف الروسي من انفصال السودان الجنوبي، فقد اعترفت روسيا بالدولة الجديدة، ودعت لتطبيع علاقاتها مع الجارة الشمالية، وتجنب المواجهات العسكرية بين الدولتين، وإلى إيجاد حلول سلمية بشأن المناطق المختلف عليها مثل إقليم "أبييه" واعتماد المفاوضات المباشرة بين الطرفين بدلاً من السلاح.

أما الموقف الروسي من الربيع العربي فقد كان براجماتياً بامتياز، وخلافاً للعهد السوفيتي الذي كانت فيه موسكو الداعم الرئيسي لكل الثورات الشعبية وحركات التحرر الوطني في العالم؛ لم تعلن روسيا تأييداً صريحاً للثورة والثوار في أي بلد عربي. فقد التزمت موسكو الصمت إزاء الأحداث لحين نضجها، ووضوح الصورة كما حدث في تونس ومصر، أو وقفت موقف الحياد أو المتابع المتأني كما في حالة اليمن والبحرين. في حين أبدت مواقف مؤيدة للسلطة الحاكمة في ليبيا، وكان هذا التأييد أوضح ما يكون في الحالة السورية. ولكن موسكو حرصت في ذات الوقت على إبقاء قنوات اتصال مفتوحة مع الثوار، في محاولة منها لتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن، والتأكيد الدائم على نزاهة مواقفها، وحرصها على الاستقرار الداخلي والإقليمي للدول العربية. وذلك بهدف الإبقاء على علاقاتها بالدول محل الثورات بغض النظر عن الطرف الذي سيسيطر على السلطة ويكون له الغلبة في النهاية[21].

أما خارج المنطقة العربية، فعلى سبيل المثال في المثلث المكون من روسيا وإيران وتركيا، حيث تتقاطع وتتفاعل مصالح هذه الدول على نحو معقد متعدد الدلالات. سنجد أن ما يجري هناك نوع من التقارب والتعاون بين تلك الدول، وأحياناً

---

[20] محطة روسيا اليوم، مرجع سابق. http://arabic.rt.com/news_all_news/news/578156/

[21] د. نورهان الشيخ، أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة : روسيا في عيون العرب، BBC Arabic، 8 شباط 2012، www.bbc.co.uk/arabic/.../2012/.../120208

يكون على العكس تماماً؛ أي تنافس وصراع على الدور الإقليمي. وحين نراجع العلاقات الإيرانية/الروسية مثلاً سنجد تقديرات لا يمكن حسابها إحصائياً، كالثقة الكبيرة الممنوحة للنظام الإيراني في روسيا بدرجة لم يحظ بها أي نظام آخر، حتى ذلك الشريك القديم (العراق) والصديق الذي لم يتغير (سوريا). ولكن الثقة ليست الدافع الرئيسي وراء الدعم الروسي؛ فهناك الكثير من المصالح المشتركة، والاعتبارات الجيوسياسية وراء هذا الدعم. فإيران تمثل أهمية بالغة لروسيا في عدد من النواحي، منها حماية البوابة الجنوبية لهذه الأخيرة، ومساعدتها في المنافسة على المصادر البترولية وطرق نقل الطاقة من منطقة بحر قزوين، والتي تشهد تنافساً حاداً مع الشركات الغربية والأمريكية منها خاصة. ناهيك عن التبادل التجاري بين البلدين والتعاون في مجال الطاقة النووية السلمية. لذلك ظلت موسكو رافضة لتشديد العقوبات على طهران، مقترحة إطلاق عملية تفاوضية بين إيران والغرب لإنهاء أزمة الملف النووي. ولكن التصلب الإيراني كان يسبب الحرج لروسيا، الأمر الذي أدى لتوتر العلاقات بين البلدين في العام 2010، خصوصاً بعد أن أيدت روسيا عقوبات مجلس الأمن الدولي على إيران، وامتنعت عن تزويدها بصواريخ S300 الدفاعية.

وبالنسبة لتركيا، حسب بعض الخبراء قد تفقد إيران بالتدريج نفوذها في المنطقة العربية، بتأثير التغييرات الثورية للربيع العربي، ما يعني أن تركيا، على العكس، يمكن لها أن تعزز مكانتها ومواقعها هناك. ومع زيادة التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط والقوقاز وجدت أنقرة نفسها أمام تحديات جديدة، وأن عليها الحذر والبحث عن نقاط تماس وتقارب مع روسيا، التي تسعى بدورها إلى تفعيل سياستها الخارجية وتمتين مواقعها الإستراتيجية. ومع أنه لا مصلحة لروسيا في ازدياد التأثير التركي (ولا الإيراني) على أذربيجان وأرمينيا وجورجيا، إلا أن ثمة نقاطاً مشتركة وحاجة موضوعية للتعاون في مجالات الاقتصاد والطاقة، وإلى تنظيم التعامل السياسي بين أنقرة وموسكو، لمواجهة نفوذ الولايات المتحدة.[22]

---

[22] روسيا اليوم، روسيا – تركيا – إيران : المؤتلف والمختلف، 22-2-2011.

http://arabic.rt.com/prg/telecast/64103/

فيما يخص أفغانستان، فإن روسيا تراقب باهتمام ما يحصل على خاصرتها الجنوبية، وقد أكدت على أهمية تمتين علاقاتها مع كابول، على أساس علاقات الجوار، وعلى أهمية قيام تحالف إقليمي لمحاربة إرهاب طالبان، مع أنها في نفس الوقت لم تستبعد قيام حوار مع طالبان، حذرت من تبعات قضية استبعاد حركة "طالبان" من قائمة عقوبات الأمم المتحدة. وأعلن "كابولوف"، المبعوث الروسي الخاص بأفغانستان أن أي طلب حول الاستبعاد من القائمة يجب أن يكون مبرراً، وهذا يعني تقديم ضمانات لعدم عودة "طالبان" إلى ممارسة نشاطها العسكري.

وفي السياسة الروسية الخارجية تظل العلاقات مع الصين من بين أهم الموضوعات؛ فهناك ترابط بين الدولتين في مجالات عديدة (دون نفي بعض التناقضات)، فإلى جانب أن الدولتين تشتركان في حدود جغرافية يزيد طولها عن 3400 كلم، فإنهما متوافقتان في عدد من التوجهات التي تزيد من فرص التنسيق السياسي بينهما على المسرح الدولي؛ أهمها أن الصين تمثل الشريك التجاري الأول لروسيا، (حجم التبادل التجاري بين البلدين وهو 70 مليار دولار، سيبلغ 200 مليار عام 2020)، وهو ما يعني وجود مصالح اقتصادية مشتركة بينهما. وهناك العديد من الأطر التنظيمية للعلاقة بينهما، مثل اللجنة السداسية الخاصة بكوريا الشمالية، ومنظمة شنغهاي، وكتلة دول البريكس، ناهيك عن تواجدهما ضمن الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي. ثم هناك التوافق بين البلدين على مبادئ إستراتيجية ترى كلتاهما أنها تحكم العلاقات الدولية، ولديهما مواقف متشابهة من كوريا الشمالية وإيران وسوريا والقضية الفلسطينية.

روسيا ومستقبل النظام الدولي

صحيح أن الحرب الباردة بين قطبي النظام الدولي السابق قد انتهت بهزيمة المعسكر الاشتراكي وانهيار سور برلين، وأن الحرب الباردة الجديدة ليست بقوة وتأثير سابقتها، ولكنها تبقى مؤشراً على سمات وملامح المرحلة المقبلة، والتي يمكن

وصفها بأنها نتاج لمسار العقدين الأخيرين، حيث برزت خلالهما عدة تغييرات هامة وجذرية تركت أثراً كبيراً على الخارطة السياسية العالمية، من أهمها أن القوة الاقتصادية بدأت تحل تدريجياً محل القوة العسكرية، كما برزت خلالهما كتل سياسية اقتصادية جديدة سيكون لها دور كبير في تقليص وربما إنهاء هيمنة الولايات المتحدة على النظام العالمي، أهمها الاتحاد الأوروبي وروسيا ودول شرق آسيا وخاصة الصين واليابان. إلى جانب دول أخرى ستغدو في عداد القوى العظمى عما قريب، ومن أهمها الهند والبرازيل.

ويمكن المجازفة بالقول أن روسيا تقوم بحملة عالمية لقيادة المقاومة العالمية لنظام "القطب الواحد" الأمريكي. فقد ألقى بوتين خطاباً هاماً في المؤتمر العالمي السنوي للأمن العالمي، الذي عقد في ألمانيا (2007)؛ قال فيه: "إن مشاريع الولايات المتحدة لإقامة شبكة صواريخ متقدمة في شرق أوروبا، وعلى حدود روسيا، هي استفزاز، وهي جزء من المشروع الأمريكي للسيطرة على العالم". مضيفاً ومحذراً: "إن هذا النهج الأمريكي هو ما يقود إلى سباق التسلح، ولدينا سلاح قادر أن يتغلب على كل هذه المخططات". وأشار بوتين إلى ازدواجية المعايير في المواقف الأمريكية، وإلى أن الولايات المتحدة تُنَصِّب نفسها مسؤولة عن حقوق الإنسان وتخرق هي بنفسها حقوق الإنسان خارج حدودها، وتساعد على سباق التسلح العالمي. وقد عدّ مراقبون خطاب بوتين أقوى خطاب لزعيم روسي منذ سقوط الاتحاد السوفيتي، وهو إشارة إلى أن روسيا تريد أن تعود دولة عظمى أساسية على الساحة الدولية، وثانياً أن روسيا ترفض نظام القطب الواحد الأمريكي وتدعو الدول الأخرى، إلى رفض النظام الاحتكاري الأمريكي.

وفي العالم هناك قوى أخرى رافضة للمشروع الأمريكي ومقاومة له: فمثلاً الصين، وهي الآن تبرز عملاقاً اقتصادياً مناوئاً ومنافساً للولايات المتحدة. وأيضاً هناك الاتحاد الأوروبي الذي عبَّر عن رفضه الهيمنة الأمريكية. وفي أمريكا الجنوبية لم تعد كوبا جزيرة معزولة، وإنما أصبحت السياسة الأمريكية هي المعزولة؛ خاصة

بعد انتصار الأحزاب الاشتراكية، في انتخابات ديمقراطية، واستعادة شباب أمريكا اللاتينية للحلم الاشتراكي والاستقلالي معاً، وهذا بحد ذاته ضربة سياسية وأيديولوجية للولايات المتحدة ومشاريعها وأحلامها الإمبراطورية. ومن ناحية أخرى فإن الفوضى المأساوية في العديد من دول العالم الثالث تعمل ضد المصلحة الأمريكية؛ فأمريكا غارقة في وحل أفغانستان والعراق، وهناك استنزاف للهيبة العسكرية الأمريكية في هذه الدول. وفي النتيجة يمكن لنا أن نضع الغضبة الروسية التي عبَّر عنها بوتين متجانسة ومترابطة، مع كل هذه التحولات العالمية الرافضة لنظام القطب الواحد الأمريكي، والرافضة أن تقود دولة واحدة - أياً كانت - مصير العالم. [23]

الكاتب الفلسطيني "أحمد عزم" يعتبر أن العام 2008 يشكل منعطفاً في هذا المسار، حيث أخذ شكل النظام الدولي فيه طوراً غير مسبوق تاريخياً، ويضيف في مقالته في صحيفة الاتحاد أنه يمكن القول أن اللحظة الأمريكية، أي لحظة الأحادية القطبية، التي بدأت مطلع التسعينيات، انتهت أو أوشكت على الانتهاء، بسبب تدني قدرة وفاعلية العسكرية الأمريكية أولاً، وثانياً بسبب الأزمة المالية والاقتصادية الأمريكية. وبسبب نمو القوى الدولية الجديدة التي أشرنا إليها، والتي تعمل على تقليص قدرات الولايات المتحدة في السياسة الدولية.

ويؤكد "عزم" أن هذا كله لم يُنتج حتى الآن نظاماً متعدد الأقطاب بشكله الكلاسيكي الذي كان موجوداً قبل وبعد الحرب العالمية الثانية، حيث كان يسود التنافس والصراع، إذْ حلت ظاهرة التكاملية في العلاقات الدولية محل الصراع، فالعالم بفعل العولمة والتجارة الحرة يعيش حالة تجعل خسارة أحد الأقطاب الدولية خسارة للقطب الآخر، على عكس الوضع السابق حيث خسارة طرف تمثل كسباً للآخر، وذلك لأن الاقتصاد العالمي بات مترابطاً ومتشابكاً بشكل غير عادي.

---

(23) سالم جبران : روسيا تقود المجهود العالمي لإسقاط نظام القطب الواحد، الحوار المتمدن، العدد 1826، 2007/2/14. http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=88646

كذلك فإنّ الدول الكبرى إمّا غير راغبة أو غير قادرة على ممارسة دور بديل أو منافس للدور الأمريكي، ونتيجة لهذه المعطيات سيعيش العالم مرحلة تحولت فيها الولايات المتحدة من كونها الدولة العظمى، والقطب الأوحد، إلى الدولة رقم واحد في العالم، بمعنى أنّها لم تعد في وضع مريح بالقدر الذي كانت عليه سابقاً، وباتت تحتاج موافقة ومساعدة دول أخرى (إقليمية وعالمية) لتتدخل في أي منطقة بالعالم، ولكنها مع ذلك لا زالت الدولة الوحيدة في العالم التي لها مصالح ونشاط ودور فاعل اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً في كل إقليم في العالم، أو على الأقل أكثر وبمراحل من أي دولة أخرى، وهناك فجوة كبيرة بين عناصر قوتها وبين من يليها من القوى[24]. وبالتالي أمام روسيا الكثير لتفعله لتستعيد مكانتها وتعيد أمجاد السوفيت أو القياصرة، لا يهم، المهم عليها إنهاء التفرد الأمريكي في العالم.

---

[24] د. أحمد جميل عزم، النظام الدولي عام 2009، صحيفة الاتحاد الإماراتية، الخميس، 25/12-/2008.